لأنكم أحياء..
لأننا موتى

info@darak-egy.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

لأنكم أحياء.. لأننا موتى

بسمة الخولي

تصميم الغلاف: أسامة علام

تدقيق لغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 2019/7348

الترقيم الدولي: 978-977-6634-20-6

الطبعة الثانية: 2019

بسمة الخولي

لأنكم أحياء..
لأننا موتى

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

إهداء لِمَن أشعل تلك النيران..

ومَن أطفأها..

الفصل الأول

زفيرٌ شبه بارد أطلقه هواء بداية الليل لينساب عبر المباني المتراصة على جانبي الشارع، عابث بالزينات الورقية المائلة بين هذه النافذة وتلك، ومن داخل المباني المرتفعة اختلطت الأصوات الهانئة وقد أنساها الشبع والاسترخاء حدتها السابقة، لم تنطفئ السماء بَعدُ، بل تأرجحَتْ بين زُرقة النهار وسواد الليل خلف همسات صافية ارتفعت من هذا المسجد أو ذاك تبعتها رائحة مميزة عطرة تسللت بالأجواء.

إنه رمضان، تحديدًا اللحظات القليلة التي تلَتْ وقت الإفطار، العبق الروحاني المُحبَّب بسطَ نوعًا من الهدوء على المنطقة بأكملها، بعد أن انتهت حركة النهار السريعة، وإن لم تتحول بعد لصخب الليل المرح الذي سيستمر إلى الساعات الأولى من الفجر.

كنت أجل هنا، بالمكان ذاته الذي اعتدت الجلوس به كلَّ ليلة أراقب الحركة الدائرة بين الشوارع والتقاطعات، أحيانًا أنهض لتأدية عمل ما، وأحيانًا أبقى مستندًا إلى البوابة الحديدية الصدئة خلف الكرسي الخشبي المتداعي، لم أتخلف يومًا عن المجيء إلى هنا على الرغم من أن جلوسي الصامت لم يكن ذا هدف أو فائدة تُذكر، لكنني بمرور الوقت عهدت ألفة غريبة بيني وبين ذاك

الكرسي، تلك البوابة، وهذا المنزل القديم المهجور خلفي، وبدأت أجد فيها من الراحة والسكون ما افتقدته بشقتي الصغيرة بنهاية الشارع.

السماء أصبحت تامة الظلمة الآن، لم ألحظ هذا إلا حينما رفعت رأسي مستندًا إلى جزء بارز من البوابة خلفي، تنهدت بسكون غارق بأفكاري الخاصة، على الرغم من أن الشارع أمامي كان قد بدأ الآن باكتساب شيء من ضوضاء الليل الآتية، ومن بعض المنازل بدأ عددٌ من الأطفال بالخروج حاملين ألعابهم المضيئة ومرحهم اللامتناهي.

بقيتُ على هذا الحال قليلًا ناظرًا إلى السماء ثم خافضًا نظري دون تركيز حتى لمحته من بعيدٍ..

كان طويل القامة، ذا ملابس جيدة إلى حدٍّ ما، متناثر الشعر، يستند إلى أحد أعمده الإنارة يراقب بدوره مجموعة من الأطفال يتناقلون كرة مطاطية بينهم وسط الطريق بحماسٍ بالغٍ.

لم أكن أعرفه.. لم يكن يمثل لي أي شيء، لكنني ما إن رأيته حتى بدأَتْ ذكرى تلك الليلة تعود إلى ذهني مرة أخرى.

وللمرة الأولى منذ زمنٍ بدأت تلك الرجفة بإيجاد طريقها إلى جسدي من جديدٍ..

***

قال لي يومها: «تخاريف العجائز ما هي إلا حديثُ الشباب، لكنَّ فارق السن يا بني هو ما يجعل عقلك يصدق أو يأبى التصديق».

لم يعد عم طه بيننا الآن، لكنني ما زلت أذكر تلك الكلمات كما لو أنه قالها البارحة فقط. بل ما زلت أذكر الرجل العجوز نفسه كما أنني كنت برفقته منذ

أيام معدودة مضت.

أتذكر جيدًا جلبابه المهترئ وجلسته الصامتة فوق المقعد ذاته الذي أعتليه الآن، عصاه الغليظة التي ظلت ترتاح بهدوءٍ أسفل قبضته المهتزة تمامًا كما ارتاحت البسمة الدافئة على شفتيه أسفل عينين داكنتين ذواتي نظرة ذكية تحوطهما عشرات وعشرات من الخطوط التي حفرها الزمن بوجهه الذابل.

لا أذكر أنني رأيت هذا الرجل شابًا يومًا، وفي الواقع لا أذكر أنني رأيته بعيدًا عن كرسيه العتيق أمام المبنى القديم بشارعنا من قبل، لم ولا أعلم إن كان حارسَ المبنى أم مجرد رجل عجوز لم يجد له ملاذًا سوى هذا الجانب الهادئ بطرف الشارع، لطالما بدا وكأنه هنا منذ الأبد، أطلقنا عليه «عم طه» بعض المشاغبين اخترعوا تسميات مثل «عم طه حارس بيت العفاريت»، لكن مثل هؤلاء كانوا سرعان ما يجدون من يزجرهم بعنف.

أنا لست أحد هؤلاء الشباب المؤمنين بالخزعبلات، لكن على الرغم من أنني قضيت طفولتي وشبابي بالكامل هنا لا أظن أنني اقتربت يومًا من «عم طه» العجوز - باستثناء تلك الليلة بالطبع - ليس لأنني أكرهه أو أخشاه، أو ما شابه، لكن لم أكن أرتاح كثيرًا لجلوسه الصامت أو لمراقبته إيانا والبسمة الودود تزين ثغره، الرجل كان طيبًا بحق، لكنني كنت أقابل طيبته هذه بنوعٍ من القلق لا الحبور.

هكذا ظل الوضع كما هو، إلى أن أتى اليوم الذي بدأت فيه هرمونات «الغباء» الخاصة بالشباب بالاندفاع بعروقي، أنا رجل، إذًا عليَّ أن أتوقف عن الخوف، عن القلق، عن الحذر، عن الاهتمام، عن العقلانية... إلخ، المنطق ذاته الذي يحيل حياة أي شاب بسني إلى دفعات متتالية من الحوادث فيقضي نهاية الأسبوع إما بالقسم وإما بالمستشفى، أيهما أقرب..

وإن لم تكن نهايتي ذلك اليوم بأحد الأقسام أو بأحد عنابر المستشفى..

بل بجانب عم طه العجوز.

***

حينما تدفق هواءُ الليل الرطب فوق الأسطح العالية حولي كنت قد غرقت تمامًا في ذكرياتي الخاصة دون أن أرفع عيني عن الحركة الدائرة بالطريق من حولي، راقبت الشاب المستند إلى أبواب أحد المحال لا لغرضٍ مُعينٍ سوى أنه كان يذكرني بنفسي منذ أعوام مضت، كنت مكانه في يومٍ ما، الوقفة الواثقة ذاتها والنظرات المختلسة نحو الجالس فوق الكرسي، ثم التظاهر باللامبالاة والمضي في شأني الخاص.

فقط في أحد الأيام اختلف الأمر بالنسبة إليَّ، لم أمضِ يومها لشأني، بل توجهت نحو الجهة البعيدة من الطريق، حيث جلس عم طه الذي بدا مُندهشًا قليلًا لمجيئي وإن تتخلَّى عنه ابتسامته المعتادة.

- مساء الخير يا عم طه.

هكذا قلت يومها بمرح مصطنع وأنا أرمق الرجل العجوز الذي رد سلامي قبل أن يشير لي بالجلوس.

لا أذكر أنني توترت بعض الشيء وفكرت بالمضي، لكنني على الرغم من ذلك جلست جواره فوق صف بارز من القرميد بالحائط وأنا أرمق الشارع بدوري محاولًا فتح حوارٍ ما، أي حوار يكسر الحاجز الجليدي بيننا، لكنني كلما بدأت في التفكير بشيء لأقول وجدته مبتذلًا أو لا داعي له، لم أكن ممن يجيدون فتح الحوارات؛ لذا أغلقت فمي وجلست صامتًا.

كان عم طه مَن بدأ الحديث، ببساطة سألني عن أحوالي فأجبته باقتضاب، أطلق تعليقًا ما لا أذكر عمّا كان؛ فوجدت نفسي أبتسم تلقائيًا وأنا أجيبه،

دقائق وعاد الصمت بيننا؛ لذا لم أجد بُدًا من أن أستأذن منه وأمضي، كانت هي المرة الأولى التي أتحدث بها مع عم طه، لم تكن الأخيرة بالطبع.

اليوم التالي كررت زيارتي تلك، لكن هذه المرة استمر حديثنا لعدة دقائق أكثر قبل أن أمضي مجددًا، تلك المرة شعرت كما لو أنه فهمَ توتري بطريقةٍ ما أو فيما كنت أفكر، ولاحظت أنه لم يكن يرغب بالضغط عليَّ للحديث، كان يتركني أتحدث حين أحب وأصمت حين أشاء، بينما ظلت ابتسامته الهادئة تطوق جميع كلماته معي دون أن يشعر بالإهانة لطريقتي في الانصراف فجائيًا أو مرافقته بصمت.

دفعني هذا للعودة له مجددًا وقد بدأ حذري منه يتقهقر ليحل محله الفضول، كالمعتاد جلست جواره بعد تبادل التحيات، لكنني هذه المرة بدأت بسؤاله عن الأحوال، ثم تبادلنا بعض الأحاديث العامة عن أشياء مثل: «بركة الأيام التي قلت وأصبحت تمضي مسرعة» أو «الزمن الذي مضى ولن يعود»، تلك الأحاديث التي يتبادلها الغرباء حين يتوقفون لإلقاء السلام على بعضهم بالطريق، لا رغبة بفتح نقاشٍ حقيقيٍّ، بل هو نوع من صنع الألفة فقط.

بمرور الوقت طال الحديث وطالت فترة جلوسي برفقته؛ إذ لم يُبدِ «عم طه» تأففًا لوجودي أو حتى تعجبًا، كما أنه لم يستفسر ولو لمرة عن السبب الذي دفعني للمرور به بعد كل تلك الأعوام من التجاهل المتعمَّد، لم تتحول أحاديثه يومًا إلى الهراء أو الملل، كان يُفاجئني بقدرته السلسة على جذب أطراف الحوار دون اصطناع أو مبالغة بالكلام، كان طيبًا حقًّا، تلقائيًا تمامًا، بل إنني حتى وجدت بصحبته الاستمتاع والتجديد ما لم أجده برفقائي من السن ذاتها، خاصةً أنني لم أفارقه يومًا إلا وأحرقني الفضول للعودة له من جديد باليوم التالي، وتدريجيًا تحولت تعبيراتي المفتعلة دون أن أدري إلى ضحكات

من القلب.

أحيانًا كنا نجلس فقط نتحدث ونراقب الطريق، أحيانًا أخرى أجلب أكواب شايٍ لنا من أحد المقاهي القريبة ثم أعرض عليه مرافقتي للتمشية، لكنه كان يأبى بإصرار، شيئًا فشيئًا زال توجُّسي من «عم طه» تمامًا ليحل محله شعورُ الألفة والاحترام، شعور مَن ينتظر بلهفة زيارة جده العجوز، ذلك الشعور العائلي الذي فقدتُه منذ زمنٍ طَويلٍ.

أين كنت منذ زمن يا عم طه؟! هكذا كنت أفكر كلما رافقته، لكنني للأسف أدركتُ أنه كان هنا طوال الوقت وأن المشكلة كانت مشكلتي أنا، أنا مَن أقنع نفسه بفكرة سيئة أطلقتُها غيبيًّا دون معرفة الرجل.

كان خجلي من نفسي وأُلفتي لعم طه العجوز يزدادان، لكن مشاعر أخرى أيضًا كانت تزداد برفقتهما.

على الرغم من أنني أحجمتُ عن سؤاله في البداية، فإنني بادرته إحدى المرات بالسؤال عن السبب الذي يدفعه للبقاء هنا طوال الوقت، خاصة أنه لا يبدو كحارس للمنزل القديم خلفه.. أين منزله؟ أين عائلته؟ ومِن أين أتى؟

لم يبدُ عليه الانزعاج لفضولي، لكنه أجابني بمرارة ألا عائلة له سوى عصاه وكرسيه الخشبي، هو لا يذكر من أين أتى أو كيف وُجِد هنا، مع مضي الزمن تختلط المواقيت ليصبح من الصعب أن يحدد فعلًا كيف كانت بدايته، أو إذا كانت بداية أصلاً، لم يكن يعرف سوى أنه هنا الآن، حاضره هنا ومستقبله - إن وُجِدَ - على الأرجح سيكون هنا.

لم أسأل مجددًا، لكنني شعرت من طريقته في الحديث أنه يخفي شيئًا ما، ومن تعبيرات وجهه حينها أدركت أن هذا الشيء - أيًّا ما كان - فهو سيئ، لكنني اكتفيت بهذا القدر من المعرفة ودفنت فضولي مع الكثير من الأسئلة داخلي.

لم أسأل مجددًا.. إلى أن أتت تلك الليلة...

***

إنه البرد، إنه الليل، ما زالت الحركة والأضواء يغمرون الشوارع، أصوات الباعة وأجهزة الإذاعة بالمقاهي تضاربَتْ مع الصيحات المتنقلة بين المارة لتكوِّن مزيجًا غريبًا يصعب فهمه، لكنه صخب بما يكفي لينتزعك من أية محاولة للاسترخاء قد تُقدم على القيام بها.. لهذا السبب بالتحديد كنت أجد سيري نحو الجهة البعيدة من الشارع التي اعتدتُ التوجُّه لها كل ليلة، بطريقي توقفت أكثر من مرة لألقي السلام على أحدهم أو أرد سلامًا آخر، لكنني لم أمكث سوى لحظات برفقة أي منهم، بعدها كنت أعاود السير مرة أخرى وأنا أدندن بشرود غير عابئ بالصخب الدائر حولي.

كنت أعلم أن ليلة أخرى من الأحاديث الهادئة تنتظرني، ليلة أخرى أمارس بها تلك العادة التي أحببتها فاجلس جوار «عم طه» المرحِب مستندًا برأسي إلى الجدار خلفي ناظرًا نحو السماء ونوافذ المباني المغلقة، أحيانًا أراقب بصمتٍ البقايا الظاهرة من نجوم طمسَتْها الإضاءة الساطعة للمدينة، أو قد أعقد ذراعي فوق صدري راسمًا بعقلي قصصًا مُتخيَّلة لما قد يكون دائرًا خلف النوافذ التي لا تُفتَح أبدًا، عادة غريبة بعض الشيء، لكنني أحببتها حقًا، أحببت كيف كنت أحلِّق بعقلي إلى داخل هذه الحيوات التي لا أعيشها خالقًا كل يوم قصة جديدة وصراعًا جديدًا بين سكان تلك الشقق التي لا أرى سوى أضوائها الخافتة.

فهمت لماذا كان طه العجوز يجلس بمكانه هذا كل يوم ينظر للجميع بصمتٍ فقط، وفهمت ما الشعور أن تنزوي بمكانٍ بعيدٍ من حينٍ لآخر لتلعب دورَ مراقب الحياة بدلًا من دور المُشارك بها؛ لذا تلهفت العودة إلى نهاية الشارع هذه المرة، لم أجده.

حدقت بدهشة بالكرسي الخشبي الفارغ، وتلقائيًّا جالت عيناي بجوانب

الشارع أمامي، كنت أعرف جيدًا كراهيته العميقة لكل ما قد يجبره على مغادرة مقعده؛ لذا بدأت أشعر بالقلق وأنا أتقدَّم أكثر متجهًا نحو مكان جلوسه المعتاد منتظرًا أن يظهر بين لحظة وأخرى، لكن الرجل لم يظهر، دارت التساؤلات بعقلي وكدت أبتعد، لكنَّ شيئًا ما جذب انتباهي؛ لذا توقفت قليلًا.

على غير العادة كان «عم طه» غير موجود، لكن، وعلى غير العادة أيضًا، كانت البوابة الحديدية الصدئة القابعة خلف كرسيه مفتوحة، لم يكن هذا بالأمر الجليل، لكنه أثار دهشتي، خاصة أنني أعلم ألا أحد يسكن هذا المنزل منذ زمنٍ، أيكون «عم طه» بالداخل؟ لكن لماذا؟ انا لم أرَه ينهض من موقعه أمام البيت من قبل، ناهيك عن دخوله، ما الذي اختلف؟

لهذا السبب – على الرغم من ترددي – عدلت عن فكرة الذهاب وقد تملَّكَني الفضول..

ودون المزيد من التفكير تقدمت نحو الداخل..

الفصل الثاني

- عم طه؟

قلتُها بتوتر وأنا أتقدم نحو السلم شبه المظلم تاركًا الطريق المضيء خلفي، الرائحة العطنة للرطوبة والقِدَم لفحت أنفي فتجعدت ملامح وجهي وأنا أتقدَّم أكثر للداخل أحاذر من أن تعلق خيوط العنكبوت المتناثرة بجسدي.

بصعوبة تمكنت من اجتياز الممر الضيق بين سورٍ ما بدا كالشُّرفة والجدار الفاصل بين البيت والمبنى المجاور، كان الممر يتقدَّم للأمام ابتداءً بالبوابة الحديدية وانتهاءً بجدار مُقتَلَع الأحجار تقبع أمامه كومةٌ من القرميد الصغير وقماش قديم لم أتبين ماهيته كثيرًا بالظلام، يساري كان جدار البناية المجاورة بينما إلى يميني كان هناك سور منخفض يحوي سلمًا من درجتين بمنتصفه يقود إلى شرفة ضيقة تحوي بابًا خشبيًا من تلك الأبواب الفارغة القديمة التي تحوي في منتصفها مقبضًا حديديًا مرعبًا وزجاجًا مموهًا يغلِّفه التراب.

كان الباب مفتوحًا بالطبع؛ لذا واصلتُ تقدُّمي وأنا أحاول دفع الخيالات القاتمة عن عقلي، لم أرَ تصميم منزل كهذا منذ أن كنت في السابعة من العمر، حينها كنت أذهب بصحبة والديّ في زيارات لمنزل جدي بمصر القديمة، كان يشبه هذا المكان إلى حدٍّ كبيرٍ؛ لذا لم يكن مستغربًا أن يُشعرني وجودي هنا بالانقباض.

حالما توجهت للداخل تناثرت أفواجٌ من التراب أسفل قدمي فسعلت بحدة، لم يكن الظلام دامسًا بالداخل، بل كان يفعمه ضوءٌ حارٌ آتٍ من مصباح كيروسين قديم فوق منضدة خشبية متهالكة، تحركت من مكاني متأملًا سقف المكان المبالَغ في ارتفاعه، القرميد الذي يلف على الجدران شاحبة اللون، والنافذة نصف الدائرية التي احتلت جانبًا كبيرًا من الجدار جواري عاكسة بألوانها الداكنة الضوء البرتقالي العقيم المميز لمصابيح الكيروسين عامة.

بعد ثوانٍ ارتفع صوت السعال مُقبِلًا من الداخل؛ لذا انتبهت وقد أفلت قلبي إحدى ضرباته..

- عم طه؟ قلتها بحذرٍ وأنا أكمل طريقي نحو ممر جانبي؛ حيث ظننتني سمعت الصوت، مررت بمرآة ملطخة فنظرت لأرى انعكاس ملامح وجهي المرتابة أسفل شعري الأسود المُترَب، لكنني سرعان ما أبعدت نظري وقد أرعبني ارتسام الظلال حولي وأكملت طريقي نحو حجرة انعكس من داخلها الضوء البرتقالي الشاحب ذاته..

ما إن وطأت قدمي الحجرة حتى رأيته، ورأيتهم..

***

هناك رأس المائدة الخشبية القديمة، جلس طه العجوز عاقدًا يديه أسفل ذقنه ينظر للخشب المهترئ بصمتٍ، على جانبيه رأيتُ رجلين آخرين متفاوتي الملامح، لكنهما جلسا بالوضعية ذاتها دون أن يبدوا بوجهيهما الداكنين أيَّ تعبيرٍ يدل على أنهما لاحظا وجودي من الأساس، فقط حرك أحدهما يده أمام مصباح الكيروسين الصغير بمنتصف المائدة وقد بدا عليه الملل، بينما أطلق الآخر سعالًا كالذي سمعته من قبل.

حاول عقلي - محدود الخيال - إيجاد تفسير للمشهد الذي أراه الآن، لكنني لم أحظَ بالوقت الكافي؛ إذ رفع عم طه رأسه ناظرًا نحوي وقد بدا على وجهه الشائب مزيج من التفاجؤ وإن لم أكن مخطئًا الغضب.

نهض الرجل يتثاقل فتراجعت خطوات، لكنه قطع الغرفة متوجهًا نحوي، وأشار إليَّ لاتباعه فلم أتحرك وقد أفقدني المشهد قدرتي على التركيز، لكنه عندما أشار إليَّ مجددًا وقد بدا أكثر جدية اضطررت لانتزاع عينيَّ عن التحديق في الجالسين وتبعته دون فهم.